الفصل الثاني

معضلات التعريف

اختلاطات الفقاهة والتمذهب، وإشكالية الطائفية

سنتعامل مع الطائفية في هذا البحث على أساس التعريف الإجرائي الأولي التالي: هي: (اتجاه أو ميل و تفضيل عند أبناء المذهب الواحد لاجتهادات وفقه واحد من أئمة المذاهب الخمسة، بعد أن تشكلت كل منها في إطار مذهبي مستقل، يختلف في بعض تفسيراته عما عند الأطر المذهبية الأخرى، يتكون هذا الاتجاه في جوهره من شحنات عاطفية قوية ترتبط بوجود الإنسان وموقفه من الحياة والموت، علاقته بعائلته وبالآخرين، يتخذ هذا الميل درجات من حالة العزلة والنفور من الآخر، تتصاعد أحيانًا، وفقًا للظروف والأوضاع السياسية والاقتصادية، إلى حد الكراهية والاحتراب).

هذا يعني أن الطائفية هي نموذج من الاتجاهات النفسية التعصبية، تتخذ كل سمات الاتجاه من حيث تكونها ونشأتها وقوة تأثيرها على السلوك حيال الذات والآخرين، يمكن تعريف الاتجاه النفسي عمومًا بأنه "ميل عام مكتسب نسبي في ثبوته، عاطفي في أعماقه، يؤثر في الدوافع النوعية ويوجه سلوك أفراد"[1] يعرفه عالم النفس الاجتماعي البورت بأنه "حالة من الاستعداد أو التهيؤ النفسي، تنتظم من خلال خبرة الشخص، يمارس تأثيرًا توجيهيًا وديناميًا على استجابات الفرد حيال الموضوعات والمواقف المرتبطة بهذه الاستجابات".[2]

١- د. مختار حمزة، أسس علم النفس الاجتماعي، جدة: دار البيان العربي، ط٢، ١٩٨٢، ص.٤٤.

٢- د. معتز سيد عبد الله، الاتجاهات التعصبية، الكويت: عالم الثقافة العدد ١٣٧، ١٩٨٩، ص. ٤٥. لعل دراسة د. معتز هذه هي أفضل ما نُشر باللغة العربية من الدراسات التي عالجت موضوعات الاتجاهات التعصبية.

ليس المقصود بالخبرة في تعريف البورت، تلك الخبرات الحياتية الخاصة للفرد في مهنة أو عمل ما، بل ما يكتسبه الفرد من خبرات تربوية من عائلته والبيئة التي يعيش بها من خلال تفاعلاته الشخصية المستقلة بالواقع من حوله، أي أنها خبرات مكتسبة تتشكل كمفاهيم أو عوامل مؤثرة في تركيبته السيكولوجية، تنمو وتتعزز مع الطفل في مراحل النمو.

إن مادة هذا الاتجاه الطائفي الأساسية أو جوهره، هي مجموعة من الأفكار النمطية، والأحكام المسبقة التي تتشكل في الغالب بتأثيرات البيئة التي يعيشها الفرد[1]، ظلت العائلة في الوطن العربي حتى عهود قريبة قبل شيوع التلفزيون ووسائل الإعلام والاتصال الحديثة هي المصدر الأول لخبرات الطفل الأولية ومفاهيمه نحو موضوعات الحياة والآخرين، التي لا تتوقف حتى بعد بلوغه سن النضج بل تستمر في جميع مراحل نموه المتعددة، يشارك الجامع بفعالية في القرى والحارات أو المناطق المغلقة في المدن، في تشكيل مفاهيم الفرد ومعتقداته، أو ما يُعرف بالأفكار النمطية، كانت غالبية مجتمعاتنا العربية، مجتمعات ساكنة يغلب عليها تباطؤ الحراك الاجتماعي الأفقي والعمودي.

بعد توسع الحراك الأفقي بشكله المشوه الذي حصل فيه في سبعينات القرن الماضي وقبلها بقليل، بانتشار الهجرة من القرية إلى المدينة، اصطدم غالبية المهاجرين بمجموعة من الإحباطات ناتجة من التغيرات التي يتعرض لها الإنسان عادة بفعل تغير البيئات أو الفروق الكبيرة بين بيئة القرية والمدينة الصغيرة والعواصم أو المدن الكبرى، أو نتيجة لحجم المسافة الواسعة بين الطموحات والأحلام التي يحملها، أو حملها الفرد معه عند الهجرة وما تحقق

١- حول مفهوم الأفكار النمطية المسبقة وعلاقتها بالاتجاهات التعصبية لاحظ: المصدر السابق، ص٥٨- ٦٤ حول كيفية تشكل الصور النمطية وأثرها بالسلوك، لاحظ بالعربية: مجموعة من علماء النفس، علم النفس الاجتماعي وقضايا الإعلام والدعاية، ترجمة نزار عيون السود، دمشق: دار دمشق، ١٩٧٨، خاصة الفصل المعنون (الطبيعة الموضوعية للأنماط المقولبة واستخدامها في الدعاية الإمبريالية) ص:١١١-١٣٣.

منها فعلاً في بيئته الجديدة، كلما توسعت المسافة بين ما كان يطمح به الإنسان ويتمناه وبين ما يحققه فعلاً في الواقع؛ ازداد وتعمق الشعور بما يُعرف عند المختصين بعلم النفس بالحرمان النسبي[1]، يواجه الإنسان هذه الإحباطات وانعكاسات الحرمان النسبي للتخلص من ضغوطاتها الانفعالية عادة باستجابات مختلفة، منها التدين، اللجوء للسحر والخرافات، اللجوء إلى أحلام اليقظة والعزلة أو الانسحاب السيكولوجي، اللامبالاة والتحلل من القيم والعادات، وقلة أولئك الذين يواجهون مشكلاتهم بشكل عقلاني لينطلقوا أو يخططوا للتوجه نحو المستقبل بأشكال جديدة من السلوك مستفيدين من تجارب الفشل التي عاشوها، وغيرها من الاستجابات المختلفة، لذلك قد نجد أبناء المدن الكبرى المنفتحة على الآخر (وليس هناك في العراق ما يحسب بحسابات المدن المفتوحة في العراق غير بغداد، وإلى حد ما البصرة والموصل، وتشكل مراكز بعض المحافظات نموذج للمدينة المفتوحة بالنسبة لأبناء القرى)، هم أبعد الناس عادة عن مثل هذه الاستجابات، وأقل تعصبًا أو حتى تدينًا من أولئك المهاجرين من البيئات المغلقة، القرية أو المدينة الصغيرة.

لعل دراسة غالبية الحالات من الحركات الدينية المتطرفة أو الإرهابية في مصر التي لم يتوفر مثيل لها بالنسبة للعراق، تؤشر إلى أن معظم قادة وأعضاء هذه الحركات هم من المنحدرين من بيئات مغلقة أو القرى، فكل من شكري مصطفى زعيم ومؤسس تنظيم التكفير والهجرة، محمد عبد السلام فرج مؤسس جماعة الجهاد، تقي الدين النبهاني مؤسس حزب التحرير، صالح سرية مؤسس

١- حول مفهوم الحرمان النسبي وتأثيراته السيكولوجية، ودوره في دفع الإنسان للثورة والانتفاضة ضد النظام السائد والمجتمع، لاحظ:

- Kenneth J. Gergen/Mary M. Gergen, Social Psychology,New York: HBJ, 1981, pp.339-343.

-Andrew M. Golman,A Dictionary of Psychology, Oxford: Oxford University Press.p.628.

شباب محمد، وعبد الحميد كشك الداعية المحرض على أعمال العنف، سيد قطب، وكثيرين غيرهم ممن نفذ عمليات قتل ومجازر جماعية بحق الأقباط والمسلمين، أو حرض على هذه العمليات في سبعينات وثمانينات القرن العشرين، وكفروا المجتمع، كانوا من أبناء القرى والأرياف في صعيد مصر من المهاجرين للقاهرة والمدن المصرية الكبرى[1].

ليس هناك دراسات مماثلة عن الخلفيات الاجتماعية وأصول قيادات الجماعات الدينية في العراق، وهي تندرج في سلوكها حيال المجتمع عامة، وأبناء الطائفة الأخرى خاصة، بالتطرف الذي يمكن بالدراسة المعمقة يندرج تحت مفهوم الإرهاب، إلا أن ما لا شك فيه أن أغلب رجال الدين والمعممين الجدد في العراق هم من أبناء القرى، أو من سكان حارات مغلقة في المدن الكبيرة، كما هي حالة مقتدى الصدر.

يطول الحديث بنا عن الأسباب النفسية لانتشار التدين بالصورة التي نراها سائدة في الوطن العربي عمومًا، ما يحتاج لدراسة خاصة، أتمنى أن أوفق بالمستقبل لإنجازها، رغم أني سبق أن كتبت مقالات عدة في نفس الموضوع.

بالعودة لتعريف الطائفية أعلاه، المتتبع لتشكل هذا الاتجاه الطائفي، يلاحظ بوضوح الخصائص التالية:

١: إنه اتجاه لا واعي ولا دخل للعقل أو العقلانية فيه، كما لا دخل لإرادة الإنسان به، تشكل بتأثيرات البيئة العائلية أو المناطقية الجغرافية أو تأثيرات

١- حول الأدوار التي لعبها هؤلاء المتطرفون والجازر التي نفذوها ضد الإقباط والمسلمين معًا لاحظ:

- عادل حمودة، الهجرة إلى العنف، القاهرة: سينا للنشر، ١٩٨٧.

- عادل حمودة، قنابل ومصاحف، القاهرة: سينا للنشر١٩٨٩.

- هشام مبارك، الإرهابيون قادمون، القاهرة: كتاب المحروسة، ١٩٩٥.

- جيلز كيبل، الفرعون والنبي، ترجمة أحمد خضر، القاهرة: مؤسسة دار الكتاب الحديث، ١٩٨٨.

بعض عوامل ما يعرف بعملية التنشئة الاجتماعية، رغم أن الطائفية تتشكل كاتجاه حول بعض الآراء والاجتهادات الدينية إلا أنه لا دخل لجوهر الدين فعلاً بالموضوعات الطائفية التي تتركز حول الموقف حيال الآخرين، فهي تتكون من مجموعة من التصورات المشوشة عن الآخر.

لم يسبق أن سمعنا عن حالة ولو واحدة أن أحد من أبناء الطوائف المختلفة، جلس ليراجع فقه المذاهب المختلفة، ليختار منها مدرسة معينة اختيارًا عقلانيًا واعيًا، ظهرت حالتان في ثمانينات القرن الماضي ادعى أصحابها أنهما انقلبا على طائفتيهما، إيماناً ومعرفة وعقيدة، التيجاني من الطرف السُّني ، وموسى الموسوي من الطرف الشيعي ، تطرف الأول فاعتبر أن التسنن ضلالة وانحراف عن الدين ، فكتب كتابه (ثم اهتديت) ، ثم كتابه الآخر "لأكون مع الصادقين" ، بحث صناع الطائفية في الطرف السُّني عن مقابل شيعي، فوجدوا موسى الموسوي، حفيد المرجع الشيعي في أربعينات القرن الماضي أبو الحسن الأصفهاني، فكتب كتاب (الشيعة والتصحيح).

إن قراءة هذه الكتب تُظهر أن لا هذا كان مصححًا، ولا ذاك كان باحثًا عن الهدى، وكتابه كان استفزازيًا كما يوحي من عنوانه الذي يشير إلى أن المذاهب السُنّية كانت مجرد ضلالة، جنى الاثنان أرباح طائلة من فعلته، كانت المؤسسة الدينية الإيرانية وراء الأول، والمؤسسة السعودية الوهابية وراء الثاني[1].

مع تصاعد حدة التوجهات الطائفية خاصة بعد اندلاع حركة التمرد في سوريا، وتدفق الهبات السعودية والخليجية على من يتبرأ من تشيعه، بدأت قلة من أبناء الطائفة الشيعية يعلن تبرئه من المذهب ، يكتب مرة متهمًا التشيع بالفارسية ، ويتظاهر البعض بتبني المذهب الوهابي ، لا يدل هذا الاتجاه على أي موقف

١- د. محمد تيجاني السماوي، ثم اهتديت، لندن: مؤسسة الفجر، ١٩٩٣. نفس الكاتب: لأكونن مع الصادقين، باريس، بدون دار نشر، ١٩٨٧.

- د. موسى الموسوي، الشيعة والتصحيح، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٩.

عقلاني أو ديني، بقدر ما هو شخصي مصلحي مصدره الطمع بكسب المكافآت الخليجية والسعودية خاصة، وما تقدمه هذه الدول من فرص الشهرة من خلال الظهور بفضائياتها والمشاركة بندواتها..

غالبية أو جميع هؤلاء لا يشكلون بالأصل وزنًا طائفيًا أو اجتماعيًا؛ بل هم ممن كان يعيش قبل تحوله هذا على هامش المجتمع، ولم يكن أساسًا ممن يمكن حسابهم على المتدينين، إلا أن هؤلاء يلعبون عادة أدوار خبيثة في الترويج للطائفية ليثبتوا صدق ولاءاتهم الجديدة وطمعًا بمكافآت أكثر.

عندما يكون الطائفي متدينًا فإنه يؤدي الفروض بالطريقة التي وجد عليها آباءه، هو يغسل القدمين أو يمسح بيديه عليهما، كما رأى أهله يفعلون دون أن يعود لفقه المذهب الذي هُم عليه، في أشد الحالات تعقيدًا، قد يعود للواعظ أو الشيخ في المسجد (الذي قد لا يكون هو الآخر تعرف على أساسيات المذهب الفقهي التابع له، إلا على ما ندر من الروايات) ليتعرف على حكم من الأحكام الفقهية المهم هو يعمل، كما يعتقد، بأصح الشروط المطلوبة لقبول الصلاة، وهو يدمجها أو يفصلها وفقًا لما تعلمه، المهم أنها السُنَّة الصحيحة التي يعتقد كل منهما أنه هو من يلتزم بها، لا التحريفي الآخر من أبناء الطائفة أو الطوائف الأخرى.

تتفاعل هذه التصورات مع نزعات الغمز واللمز أو حب الاستطلاع الغريزي عند الإنسان، التي تمتزج بدورها مع ما يعززها من أفكار وتساؤلات مشوشة، لا تشبع حاجة الإنسان للمعرفة حيال الأسئلة الكبرى المتعلقة بأصل الخلق والوجود، لكنها تؤثر في تشكيل الصورة النمطية التي تتكون باللاشعور عنده عن نفسه وعن الآخر، والثابت علميًا أن هذه الصور النمطية المسبقة تلعب عادة دورًا مهمًا وتتحكم في توجيه سلوك الإنسان ومواقفه حيال الآخر، عندما تتشكل الطائفية كاتجاه سيكولوجي يقوم على أساس مجموعة من الصور النمطية أو الاستجابات المسبقة، تتميز بالتعميم، أي أن صورة الآخر من أبناء

الطوائف الأخرى تظل واحدة لا تتأثر أو تحسب حساب للفروق الفردية بين المنتمين للمذهب الآخر ، هم بالنسبة له وحدة سيكولوجية لا تختلف في خصائصها العامة مهما اتسع حجم الطائفة الأخرى أو تباعد أبنائها في المكان.

فصورة الشيعي عند عامة أهل السُنَّة كانت كما وجدها مؤرخ العراق الكبير عبد الرزاق الحسني، في قرى الأنبار، كما في مختلف الأوساط الشعبية السُنّية في فلسطين، مصر وسوريا، فيقول: "خلاصة ما كنت أسمعه أن للشيعي ذَنَب لا يختلف عن أذناب البهائم، وأن لهم أرواح تتقمص أجساد بعض الحيوانات بعد أن تفارق أجسادهم، وأنهم لا يعرفون الأكل مثلما تعرفه بقية الطوائف، وأنهم... وأنهم... وأنهم إلى أخر ما هناك من عجائب وغرائب"[1].

الغريب في موضوع هذه الصورة، أنها كانت لا تختلف عن صورة السُّني عند بعض جهال الشيعة ومتخلفيهم، الذين يعتقدون أن السُّني يولد على شاكلة البشر لكنه بذنب أو ذيل يشبه ذنب الحيوانات، وظلت هذه الصورة سائدة إلى أواسط الخمسينات، يذكرها المتعلم الشيعي والسني للسخرية من جهل أبناء جلدتهم من العرب.

ملامح الصورة واحدة بما يعني أو يوحي أن مصدرها، أو السبب في تشكلها بهذا الشكل هو واحد أيضًا ، وأن هناك مؤسسة ذات قوة وقدرة وإمكانات واسعة وراء تصنيعها ونشرها بهذا الشكل الواسع، ربما تفسر رواية قسطنطين زريق في كتابه (يقظة العرب)، أو تقدم السبب في ظهور هذه الصورة ومعرفة أصلها... فهو يورد الرواية التالية:

(كان السلطان عبد الحميد "قد اختار جماعة من الجواسيس يجوبون البلاد العربية، يلبسون مسوح الوعاظ والمبشرين، عملهم الحقيقي أن يبذروا بذور

١- محمد الحسين الكاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، القاهرة: المطبعة العربية، ١٩٥٨، ص: ٧٣.

الخلاف ويهيجوا أسبابه بين الزعماء الإقطاعيون ورؤساء القبائل البدوية الكبيرة، فكانوا يستغلون المنازعات العائلية والخلافات القبيلية وطلب الثأر، ويسعون في توسيعها وتعميقها)[1].

أما حقيقة الخلاف الشيعي السُّني حول مبدأ الإمامة، أو الخلاف السُّني – السُّني حول الحديث والسُنَّة، الذي قسمهم أو شطرهم إلى أصحاب الرأي وأصحاب الحديث، فتلك قضايا لا تثير اهتمام الطائفي السُّني أو الشيعي، بقدر ما تهمه صورة الآخر المشوهة (صاحب الذيل أو أبو ذويل)، أما ما هي مصادر هذا الاختلاف، فتلك أيضًا موضوعات لا تثير اهتمام الطائفي من الطرفين.

وجد المتكسبون بالدين، أو بعض رجال الدين الذين انغلقت بوجههم سُبل العيش ولم يجدوا إلا الدين وسيلة (راجع الفصل العاشر في هذا الكتاب)، ما يخدم مصالحهم الدنيوية في صورة هذا المسخ الآخر، فراحوا يعززونها عند هذا المتخلف والبسيط المحدود التفكير والتعليم وأولئك المستلبة عقولهم، ويغذونها بأحاديث ملفقة للنبي، أو هذا الولي أو ذاك، ليعزلوا الطوائف عن بعضها البعض بما يضمن لهم سلامة وأمن أرزاقهم. فالتقارب الطائفي لا شك سينعكس على مصادر رزقهم سواء كانت رواتب منتظمة تقدمها لهم الحكومة، أو هبات الخمس والزكاة وتبرعات المريدين.. لذلك كانت الطائفية عزيزة عليهم، يغذونها من أجل ضمان استمرارها، يصعدونها أو يهدئونها وفقًا للظرف السياسي أو الاقتصادي.

لسنا هنا في بحث لغوي لمتابعة أصل المفهوم وظهوره لأول مرة، لكن الملاحظة المهمة في مضمون المصطلح، هي أنه يشير للعصبية أو التحيز للطائفة أو الجماعة، وليس للمذهب أو الرأي والاجتهاد. بمعنى آخر، إن الطائفة تتكون من تكتل مجموعة من البشر من خلال وحدة إيمانها، أو تمسكها

١- قسطنطين زريق، يقظة العرب ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٢، ص:١٤٠.

بمجموعة الاجتهادات التي تسمى مذهب، أي أنها تتعلق بالجماعة البشرية لا بما تؤمن به.

إن زعماء الطائفية والمستفيدين منها أو ممن تحقق لهم النزاعات الطائفية أغراضهم السياسية، لا تعنيهم الاختلافات المذهبية فعلاً، صحتها أو خطئها، بقدر ما أنهم يتوجهون عادة بوعظهم وتحريضهم ضد الجماعة لا ضد ما تتمسك به من اجتهادات إلا عند الضرورة... لم نسمع مثلاً أن واحدًا من الوعاظ الطائفيين من السُنَّة من انتقد مذهب جعفر الصادق والاجتهادات التي تلته من التابعين، ولا يذكر أو يتطرق لتأثيراته الفقهية على بعض الأئمة مثل الشافعي وأبو حنيفة وحتى أحمد بن حنبل، ما يعني أن الأئمة الأربع كانوا يتواصلون ويتبادلون الرأي دون أن تنعكس اختلافاتهم بالاجتهادات على حسن العلاقة بينهم.

بل يوجه نقده إلى الشيعة، متهمًا اياهم بما يعتقده من سيئات أو خروج عن الدين، يستشهد أحياناً ببعض مقولات أحد مجتهديهم ليعمم أحكامه على المذهب أو بقية الشيعة في خلط عجيب أحيانًا بين الشيعة الاثنى عشرية، والإسماعيلية أو الزيدية أو الصفوية، والجماعات الشعوبية الغالية التي ظهرت خلال مراحل التاريخ المتقدمة وادعت بالولاء لأهل البيت، لتبرير خروجها على الحاكم في زمنها، ولكسب الأنصار بالتأثير، من خلال التأثير على عواطفهم وحبهم لآل البيت[1].

نفس الأمر نجده عند وعاظ الشيعة من المروجين للطائفية، هو لا ينتقد مذهب أبو حنيفة وما تلاه من اجتهادات أتباعه، ولا فقه أحمد بن حنبل وما تلاه من آراء فقهية لتلامذته، وهو كما الواعظ السُني يخلط بين الاجتهادات المختلفة

١- لعل أفضل من كتب بموضوعية عن جماعات الغلو والغلاة وعلاقتهم بالتشيع وموقف أئمة الشيعة منهم هو: د.عبد الله الفياض، تاريخ الشيعة الإمامية وأسلافهم من الشيعة، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٨٦، ص: ٨٦-١٢٩.

والمدارس الفقهية المختلفة ليحملها جميعًا وزر رواية أو رأي عثر عليه عند واحد من مجتهدي أو وعاظ السُنَّة ليعتبرها خروجًا على الشريعة.

الشيعة يتهمون السُنَّة بموالاة أعداء البيت أو من اغتصب الخلافة منهم، لذلك يطلقون عليهم صفة النواصب (أي من يقف موقف يناصب آل البيت بالعداء أو الكره)، ويعدون هذا الموقف بعداد الكفر والخروج عن الدين، والسُنَّة يتهمون الشيعة بكره الخلفاء الراشدين والصحابة، ويعدونه انحرافًا عن الدين يصل حد الكفر ، فأطلقوا عليهم تسمية الروافض ، أي أنهم يرفضون القبول بخلافة الراشدين الثلاثة الأوائل.

لا يجد الباحث المدقق من تفسير لهذا التوجه في نقد الجماعة لا المذهب، غير ما قلناه في أعلاه من جهل حقيقي عند هؤلاء الوعاظ، لجوهر الخلافات المذهبية أو الفكرية، فهم لا يعرفون عنها شيء غير بعض ما سمعوه، يتفاعل هذا الجهل بما عند الآخر ، مع جهل حقيقي بفقه مذهبه غير الاعتقادات السطحية العامة التي سمعها أو قرأ عنها بشكل سريع ، فيتحول الوعظ إلى تجريح وتحريض على الكراهية والعداء، بل يصل عند وعاظ الوهابية إلى حد الدعوة للتكفير واستباحة القتل.

فما يركز عليه الواعظ الشيعي هو اتهام السُنَّة ببعض الحالات الشاذة للنواصب منهم ليعمم اتهاماته على بقية المذاهب السُنّية ، نفس الملاحظة تنطبق على الواعظ السُّني ، الذي يخلط بين المدارس الشيعية المختلفة ، وجماعات الغلو بالمعتدلين.

لعل غالبية الشيعة أو معظمهم إلا ما ندر لم يقرأ نهج البلاغة، ليعرف أن الإمام علي ينفي في بعض خطبه العداء المُصنع أو المفتعل بينه وبين عمر ، فيصف عمر تارة بأنه أصل العرب، يخاف عليه ويمنعه من الخروج لقيادة حملة فتح العراق ، كي لا يتكالب عليه الأعاجم يقولون (هذا أصل العرب) فيقتلونه ،

ويمنعه من الخروج على رأس حملة فتح الشام، خوفاً من أن يتعرض للقتل، فلا يجد المسلمين بعده (أي بعد عمر) من مرجع يرجعون إليه[1].

نعم اختلفا بالقناعات والرأي حول من هو الأحق بالخلافة بعد النبي، لكنهما لم يتنازعا أو يتصادما إلى حد القطيعة، سنتحدث فيما بعد عن خلافات أبو بكر والسيدة فاطمة الزهراء في الفصل الخاص بالنزاعات وعمليات التنافر الشيعي – السني.. بالمقابل، وكما يرى عالم الاجتماع العراقي علي الوردي "أن عمر كان يميل إلى علي بن أبي طالب كل الميل، وعلي هذا كان من أثقل خلق الله على قريش وأبغضهم، فقد كان علي يكره قريش! وتكرهه قريش كرهًا لا حد له، اتخذ عمر عليًا مستشارًا له، يقول سعيد بن المسيب أن عمر كان يعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن "يعني علي"[2]، ولهذا على ما يبدو شاع عن عمر قولته الشهيرة "لولا علي لضاع عمر".

كان الهم الأول والأساسي الذي يتحكم بسلوك الخلفاء الراشدين هو الحرص في الحفاظ على الإسلام، وتوطيد شرائعه، قبل الهموم والمطامح الشخصية لكل منهم، فهم وحدة متماسكة ضد الآخر غير المسلم، والمشهور في الروايات أن أبو سفيان (الصحابي الجليل كما يرى بعض الطائفيين السُنَّة ممن لا يخفي توجهاته الناصبية)، لا الإمام علي، كان من أشد الكارهين والمعارضين لتولي أبو بكر الخلافة، جاء إلى علي ليقول له مد يدك لأبايعك، وسأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً، فسفهه علي ونهره متهمًا إياه (بأنها يد مُدت لهدم الإسلام)[3].

ولعلهم لا يعرفون؛ أو الطائفي من الطرفين لا يدري حقيقة أن عمر عين كل من رؤوس شيعة علي الأوائل عمار بن ياسر، واليًا على الكوفة، وسلمان

١- نهج البلاغة، تحقيق محمد عبده، ج٢، الصفحات ١٨،.٣٨.

٢- د.علي الوردي، وعاظ السلاطين، لندن: دار كوفان، ١٩٩٥، ص:١٢٧

٣- طه حسين، الفتنة الكبرى: علي وبنوه، القاهرة: دار المعارف، ط١٢، بدون تاريخ، ص:١٧-١٨، كذلك ص:١٧٤.

الفارسي واليًا على المدائن، يجد الطائفي في مثل هذه الروايات ما يتعارض مع مصالحه وغاياته في عزل الشيعة عن بقية المسلمين، فيتهم عمر بالحقد على علي وأتباعه وآل بيته.

٢: إن روايات التعايش السلمي والتعاون بين الإمام علي والخلفاء الراشدين، أو بين الإمام الصادق وأئمة السُنَّة الآخرين لا تخدم أغراض الطائفي، ولا تحقق مصالحه، لذلك استبدلها بروايات تشير إلى العداوة والقطيعة، إن الجاهل أو المتطرف الشيعي لا يعرف أنه بشتمه الخليفة عمر تحزبًا للإمام علي إنما يشتم الإمام علي نفسه بذلك، فهو الذي اعتبر عمر (أصل العرب) وأن (ليس للمسلمين من مرجع يرجعون إليه من بعده).

تختفي العقلانية أو حتى التحيز والعصبية للمذهب عند الطائفي لتغدو صور الكراهية والروايات التي يروجها وكأنها هي جوهر المذهب، بل هي الإسلام والدين الصحيح بعينه.

بالمقابل لا يعرف غالبية السُنَّة ولا حتى الشيعة، إلا ما ندر أن كل من أبو حنيفة والشافعي كان قد تعرض للسجن والمُلاحقة لاتهامه بالتشيع، وأن أبو حنيفة سُجن في زمن الأمويين لتأييده ودعمه بالمال لثورة زيد بن علي بن الحسين (إمام الشيعة الزيدية، الذين يسمونهم الآن بالحوثية إطلاقًا)، وأنه سجن في زمن المنصور العباسي لتأييده وتحريضه للناس للانضمام إلى ثورة محمد ذو النفس الزكية وأخيه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن، وإرساله الأموال والتبرعات لهما[١].

وإذا صحت الرواية في أنه مات متأثرًا بالسم الذي دسه له المنصور في السجن. يكون بذلك أحد شهداء الولاء لآل البيت، ما يفرض على الشيعة أن

١- عن موقف أبو حنيفة من ثورات العلويين ودعمه لها راجع عبد الرحمن الشرقاوي، أئمة الفقه التسعة، بيروت: دار اقرأ، ١٩٨١، الفصل الخاص بأبو حنيفة النعمان الصفحات ٥٣-٧٢.

يضعوه في قائمة شهدائهم الكبار ، فقصته لا تختلف عن قصة الإمام الشيعي السابع موسى الكاظم الذي مات بتأثير السم الذي دسه له الرشيد وهو في السجن، مع فارق أن أبا حنيفة كان أكثر حركية ونشاط في تأييده لحق آل البيت في الحكم من الإمام الكاظم، لكن ما نراه أن بعض جهال الشيعة وحتى وعاظهم يشتمون أبا حنيفة على أساس أنه سُني ناصبي يكره آل البيت ويناصبهم العداء وينكر حقهم في الحكم ، والمعتدل منهم يخفي هذه الوقائع عن ولاءات أبي حنيفة.

نفس الأمر ؛ فإن الجاهل الشيعي الذي يشتم الخليفة أبا بكر أو السيدة عائشة تعصبًا لآل البيت ، لا يعرف أنه يشتم بذلك جدة الإمام الصادق وجده لأمه الخليفة أبو بكر ، فأمه هي فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين.

٣: إن الشريعة تعني مجموعة الأحكام التي شرعها الخالق في محكم كتابه الكريم ، والفقه أو الفقاهة تعني تفسيرات بعض المجتهدين لبعض الآيات أو السور أو الأحكام التي يجتهد بها هؤلاء الفقهاء في بعض الأمور التي يعتقدون أنه ليس هناك من نص واضح بها في القرآن والسنة... أي أن الفقاهة ليست إلا صناعة بشرية تحتمل الخطأ والصواب، لكون الفقهاء بشر يخضعون مثل سائر الناس لمؤثرات طبيعتهم الإنسانية.

البشر خطاءون، تتأثر عملية الإدراك عندهم بالعوامل النفسية الداخلية؛ شعورية كانت أو لا شعورية، كما يتأثرون بالغرائز ، والظرف الذي يعيشه الإنسان في اللحظة التي وقع أو حصل بها الإدراك.. والمجتهد أو الفقيه بشر كسائر الناس، يغضب ويرضى ، ويحب ويكره، يحزن ويفرح، يجوع ويشبع، ويحتاج لأن يؤدي عملية التفريغ ، يتألم ويمرض ويهذي كما يهذي الآخر المتأثر بشدة

ارتفاع حرارة الجسم، وغير ذلك من الأمور التي تتأثر بها عملية الإدراك عند الإنسان[1]، فأحكامه ليست مقدسة ولا قطعية.

يرى الداعية الإسلامي المتشدد سيد قطب أن تلك الاجتهادات الفقهية كانت محكومة بظرف ظهورها في الزمان والمكان الذي ظهرت فيه، وهي قد لا تصح لظرفنا أو زماننا، فهو يرى "أن الأحكام الفقهية لا تزيد على أن تكون محاولات بشرية لتفسير تلك الشريعة وتطبيقاتها تفسيرًا وتطبيقًا صالحًا لفترة معينة من الزمان ومستمدًا من روح هذه الفترة وتصوراتها للحياة، وقد لا تصلح هذه المحاولات لأكثر من زمانها"[2].

يمضي سيد قطب في اجتهاداته إلى مدى يرى أن اجتهادات وفقه الصحابة، مثل أبي بكر وعمر وعلي وابن العباس وابن عمر ومثلهم من أصحاب الرسول ﷺ لا تصلح لزماننا، "يمكن الاسترشاد أو الاستشهاد بها في الحالات المشابهة التي تعرض للأجيال المتجددة ولكنه لا يبلغ حد الإلزام المطلق لأنه مجرد رأي بشري في شريعة الله ليس جزء من الشريعة الثابتة الصادرة من الله"[3].

لعل الشيعة والمعتزلة كانوا أكثر عقلانية وأقرب لمنطق العقل عندما قالوا إن الفقيه يصيب ويخطئ، حاله حال بقية البشر، استثنى الشيعة بذلك أئمتهم من الخطأ باعتبار أن عصمة الأئمة إرادة إلهية[4]، إلا إنا نجدهم يتراجعون عن هذا الحكم الفقهي حول كون المجتهد يمكن أن يصيب وأن يخطئ في مرحلة ما بعد

١- عن طبيعة عملية الإدراك، وتأثرها بالظروف والتفاعلات الداخلية للإنسان المُدرك، راجع:
Helen Kaye ,Edited by ,Cognitive Psychology, London: The Open University,2010 ,PP: 26-151.

٢- سيد قطب، نحو مجتمع إسلامي، بيروت: دار الشروق، ط٤، ١٩٨٠، ص:٥٧

٣- نفس المصدر، ص: ٥٢-٥٣.

٤- حول رأي الشيعة في الاجتهاد وخضوع المجتهد للطبيعة البشرية التي يمكن أن تعرضه للخطأ، راجع: مرتضى مطهري، مبدأ الاجتهاد في الإسلام، طهران: مؤسسة البعثة، ١٣٥٧ ه-، خاصة الصفحات ٢٠-٢١.

الاحتلال الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣، (مرحلة تشيع العولمة)، فراحوا أو راح مراجعهم يشيعون الروايات الواضحة الاختلاق عن قدسية المرجع، بل وحتى المعمم إطلاقًا، حيث تنتشر القصص عن اجتماع أسبوعي بين السستاني والإمام المهدي المنتظر، ويدعي رجل دين آخر أنه بلغ درجة الاجتهاد، والدليل أنه يشرب الشاي بين فترة وأخرى مع الإمام الغائب المهدي.

المهدي هو الإمام الثاني عشر عند الشيعة وهو غائب بقدرة الخالق، كما يعتقدون، وهو أيضًا يعرف علوم الأولين والأخرين نقلاً عن آباءه عن النبي عن جبرائيل عن الله.. ويشيع مجتهدي العولمة والاحتلال الآن؛ أن المهدي بدأ يعقد اجتماعات دورية مع المجتهد، يعطيه التعليمات كي يتصرف بوحيها، فيلغي أو يرفع واجب أو فريضة الجهاد ضد المحتلين أو الغزاة الكفار (وهي من أصول الدين أو الفرائض الواجبة لا تقل أهمية عن الصوم والصلاة والزكاة والحج عند الشيعة ما قبل الاحتلال) كما اتفق على ذلك من سبق من فقهاء الشيعة قبل أن يغير المهدي المنتظر برنامج عمله وجدول نشاطاته. ويُدَعم المرجع (وفقًا لنتائج اجتماعاته مع المهدي على ما يبدو) بفتواه ما أراد بريمر ودعى له بضرورة إغلاق الحدود مع الدول العربية وخاصة سوريا، لأنها ترسل الإرهابيين العرب الذين يتوافدون على العراق للمساهمة في مقاومة الاحتلال.

ينبري السستاني أو يُفتي في اليوم التالي بضرورة مراقبة الحدود لمنع المخربين من دخول العراق، يفتي أو يوصي تارة أخرى بضرورة التقنين باستخدام الكهرباء، غير الموجودة أصلاً ليبرأ الأمريكان من جريمة تدمير البنى التحتية العراقية، والكهرباء منها[1]، فتح الخميني باب السماء للفقهاء الشيعة، ليعتلوا

١- د. موسى الحسيني، مرجعية السستاني والاحتلال: قراءة وطنية لمذكرات بريمر، نشرت بثلاث حلقات في جريدة القدس العربي - تموز ٢٠٠٦. يمكن الإطلاع على الموضوع على الرابط التالي: http://articles-to-read.blogspot.co.uk/2006/07/blog-post_19.html?m=0

لعرش الخالق، ويقفوا جنبه كوكلاء ونواب عنه، ممثلين له، يتمتعون بكل حقوقه في مصائر البشر كما سنفصل ذلك في فصول قادمة.

بالمناسبة إن المهدي عند بعض وعاظ الشيعة ممن شاهد أو تأثر، على ما يظهر، بأفلام السوبرمان؛ تحول إلى مهندس يصلح الطائرات المعطوبة أو التي يمكن أن تتعرض إلى خلل فني وهي طائرة في الجو، مجرد أن يستنجد به ركابها، يؤكد الواعظ صحة رأيه أو روايته هذه بذكر اسم الحاج غير المعروف وربما يكون الاسم وهميًا، ليؤكد مصداقية كلامه.. فهذا الحاج لم يسترح له بال إلا بعد أن يذهب عند نزوله من الطائرة ليسأل المهندسين عن حقيقة الأمر، وكيف حصلت هذه المعجزة في أن الطائرة تتصلح وتعود لوضعها السليم بعد أن أعلن كابتنها وقوع الخلل وضرورة الاستعداد للسقوط، وفجأة بعد دقائق قليلة تعتدل الطائرة وتكمل رحلتها بسلام، فيجيبه المهندس أنه لا يدري وهو مندهش مثله، فقد وجد أن أحد أجزاء الطائرة أصيب بالخلل، لكن أحد ما أو قوة ما استبدلت الجهاز بآخر جديد خلال طيرانها بالجو، فانتهت المشكلة وعادت الطائرة إلى وضعها السليم.

ويستغني واعظ آخر عن خدمات الإمام المهدي بإدعاء الصلة الوثيقة بالسيدة فاطمة الزهراء، التي كانت تجلس القرفصاء وراء نخلة قريبة من مجلسه تراقب الحضور لتشهد يوم القيامة لمن بكى بصدق على مأساة الحسين، ويصدقه الناس ويحوطون النخلة المقدسة التي اختبأت وراءها الزهراء في اليوم التالي بسياج، ويحملون أطباق الحنة لتحنية النخلة وسياجها، فهي مباركة كما قال الشيخ.

يدعي آخر أن الزهراء استغلت وجوده منفردًا في ديوانه فزارته لتشتكي عنده من الخليفة عمر، تكشف له عن خدها الأيسر لتريه آثار ضربة عمر لها التي مازالت بعد مضي ١٤٠٠ عام تُعلم على خدها، أي أنها لم تتعرض كما تقول الروايات الشائعة لكسر ضلعها بل للضرب على خدها، وإلا كان الأحرى

بالسيدة البتول أن تشكو له آلام كسر ضلعها، فكسر الضلع وآلامه أشد وقعًا وتأثيرًا من الصفع[1].

رغم أن مجتهدي وفقهاء السُنَّة يعيبون على الشيعة القول بعصمة الأئمة من آل البيت، الا أنهم قالوا بأئمتهم وفقهائهم ما قاله الشيعة، ولو بطريقة توحي بالاستحياء، أو بمصطلحات أخرى أخف تأثيرًا على السامع، فهم يعتقدون أن الفقيه أو المجتهد لا يمكن أن يخطئ، هو دائمًا على صواب، وهو مأجور بالحسنة الواحدة في حالة الخطأ، لذلك عُرفوا بالتاريخ بالمصوبة.

ويبدو أن فقهائهم المتأخرين أرادوا أن يستفيدوا من هذه القاعدة الفقهية، فتمسكوا بالحديث: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر"، طمعًا في كسب الأجر بالآحاد التي ستشكل أرقام كبيرة قياسًا بكثرة أخطائهم.. الملاحظ أنهم تنقلوا بشكل كيفي، وحسب الظرف المطلوب بهذا المخطئ، فمرة قالوا الحاكم، وأخرى المجتهد أو القاضي، فهم أحباب الله يثابون حتى على أخطائهم وانحرافاتهم عن أحكامه، حسب الظرف والطلب ومركز الإنسان المطلوب له الأجر عند الله على أخطاءه أو خطاياه سواء كان حاكمًا أو قاضيًا أو مجتهد.

هذا الخلط والتشوش بالمفاهيم، ومتاهات التفسير والاجتهاد والفقه، وتداخل الآراء والقناعات الشخصية بالشريعة، توحي أو تظهر رغبات نرجسية حادة عند الفقهاء والمجتهدين لمشاركة أو منافسة الخالق في ما ارتآه لنفسه من دور الحاكم الأحد الأوحد، الذي لا شريك له في العفو والمغفرة أو العقاب.. قناعتي وأنا الجاهل بفقههم، إلا أني أمتلك على الأقل ربع القدرة على الاجتهاد، وفقهاء الطرفين يقر أن العقل هو أحد مصادر الاجتهاد الأربع، سواء سموه (العقل) أو بأسماء أخرى مثل الاستحسان أو (الرأي)، ما أعرفه هو أن الرأي من نتاج

١- تنتشر على اليوتيوب مثل هذه المواعظ والروايات بين الفترة والأخرى.

العقل ، إن بعض الفقهاء محكومين بنزعات نرجسية حادة ليموضعوا أنفسهم فراعنة وآلهة جدد باسم حاكمية الله، كما سيأتي الحديث عن ذلك في الفصول القادمة.

أرى أن الطائفية نموذج من الخروج عن الدين بغطاء الدعوة لتيسير الدين وتفسيره، وهي قد تعني أي شيء آخر غير الدين والتدين، كما تؤشر لنقص في الإدراك والمعرفة، فهي في جوهرها كما قلنا في أعلاه توجهات لا شعورية سببها صور نمطية وأحكام مسبقة اندست في عقل الإنسان بدون وعي ولا إرادة منه، تمكنت منه لأنه لم يبلغ من قوة الإدراك والتفكير السليم ما يمكنه من الخلاص منها. فكانت هي الأرضية التي استند لها صُنَّاع ومحترفو وتُجَّار الطائفية ، لينطلقوا منها إلى تحقيق مصالحهم الدنيوية ، ويكسبوا أكثر ما يستطيعون من ملذات ونعم الدنيا من خلال استغلال غفلة هذا المتخلف الطائفي.

بالتحليل العلمي لما يجري ويطرح من سياسات، فإن الطائفي، علمانيًا كان أو مسلمًا أو من أديان أخرى، شيعيًا أو سُنيًا، قوميًا أو بعثيًا، يساريًا أو من أي انتماءات أخرى، سواء كان يعرف أو لا يعرف؛ فهو يقف في صف العمالة للغرب والصهيونية.

إن التقسيم الطائفي، وتفتيت الدول العربية وتجزئتها إلى دويلات صغيرة على أساس طائفي ، مشروع صهيوني طُرح منذ أوائل ثمانينات القرن الماضي ، معلن ومعروف بعنوان "استراتيجية إسرائيل لثمانينات وتسعينات القرن".

٤: أغرب ما بالفقه والفقاهة والاجتهاد، أو أي من تلك التسميات التي تشكل الأساس في التوجهات الطائفية، أنها تناقض نفسها بنفسها، مادامت هذه النزعة قد قبلت بالتدخل في أحكام الباري عز وجل، وما دامت تقر جميعها بأن البشر خطَّاءون، فحتى فقهاء السُنَّة الذين ينفون خطأ المجتهد، هم بما يستندون له من حديث: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم

أخطأ فله أجر" ؛ يقرون ضمناً أن المجتهد يمكن أن يخطئ ويصيب غير معصوم.

إن الإقرار بكون الإنسان يمكن أن يخطئ ويصيب ، لا يبرر لأحد منهم أن يضفي على هذا الفقيه أو الإمام أو المجتهد ما نراه من سمات قدسية وهمية، إن القبول بخطأ الفقهاء يفرض على الجميع القبول بالرأي الآخر ، أو كما عبر عن ذلك الإمام الشافعي بمقولته المشهورة: "رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب"..

فجميعهم بشر يتأثرون بالعوامل المختلفة التي تؤثر على الإدراك وقابلية استخلاص الحكم الشرعي السليم ، إن العقلانية المجردة من تأثيرات الأحكام النمطية المسبقة ، وتأثيراتها التعصبية ، تفرض القبول بالرأي الآخر ، هو بشر مَنّ الله عليه بالعقل ليجتهد ، والآخر بشر أيضًا هو أيضًا ينعم بنعمة العقل ، مناقشته بالحسنى والبحث عن المقدمات التي كانت سببًا في خطأه ، لا أن ينصب هذا النرجسي المبتلى بأنا مريضة مضخمة نفسه وكيلاً عن الله في أرضه، يصدر الأحكام المجحفة بانحراف الآخر وتكفيره.

إن عملية التفاعل العقلاني هذا يمكن أن ترتقي بالفقه وتنقله إلى مستوى من الرقي ليخدم الإنسان ويحول الدين إلى ما أراد منه الخالق ليكون رحمة للعالمين لا حافزًا لنشر الكراهية والحقد والتطاحن والعراك ، واستهلاك طاقات البشر ، بما لا يخدم عملية التطور والارتقاء إلى المستوى الذي وصلته الإنسانية جمعاء (خاصة أهل الكفر)، ما حرمنا فقهاء المسلمين منه.

كل الأديان تضم مذاهب مختلفة في رؤاها عن بعضها إلا أنها تتعايش بسلام ووئام، إلا الإسلام... ويقولون عنه ويصفونه أنه دين رحمة وسلام، أي رحمة وأي سلام وقد تحولت رؤوس المسلمين المقطوعة لكرات قدم يلعب بها المجاهدين؟.

تلك مجرد نماذج من مواقف الطائفيين، أو المتحزبين مذهبيًا من وعاظ ومتفقهين ومراجع، جندوا خبراتهم ومعارفهم الدينية في خدمة هذا الحاكم أو ذاك، لا أدل على ذلك مما وجدناه في مواقف رجال الدين والوعاظ في مصر، بل في مختلف الأقطار العربية، فهم في الغالب اشتراكيون لأنهم اكتشفوا أن الاشتراكية التي يقول بها عبد الناصر مشتقة من صميم الإسلام، لكنهم اكتشفوا صدفة بعد زيارة السادات للقدس أن الإسلام دين سلام ومحبة ينهى عن الحرب والعدوان، فهما خروج على الشريعة.. حتى أن مرشد الإخوان المسلمين عمر التلمساني لا يتحرج أن يكتشف فجأة "أن السلام هو الهدف الأسمى للإسلام، ومن الخير أن نسعى إليه"[1]، في عهد مبارك اتخذوا من "أحاديث الرسول ﷺ سندًا لتبرير التحالف المصري الأمريكي ضد العراق"[2].

هؤلاء هم صناع الطائفية ودعاتها، بضاعتهم الخرافة التي يريدون بها إلغاء أو تعطيل العقل الذي هو نعمة من النعم التي مَنّ الله بها علينا، ومسخ إنسانية الإنسان لينفردوا هم بحيازة ملذات الدنيا والعيش الرغيد دون الآخرين، من يتصدى لخرافاتهم ونزواتهم المريضة المشحونة بحب الدنيا وملذاتها فهو كافر، يتهدده القتل.. أسلوب من قمع مرضى نفسيين، من أعداء المجتمع السيكوباثيين محدودي العقل والتفكير، يعوزهم العلم والمقدرة العقلية على حوار الآخر، لذلك لا يمتلكون إلا الجريمة والقتل للتخلص منه.

إن الدراسة المعمقة لما اجتهد به أئمة السُنَّة الأربعة، مقارنة لاجتهادات الفقيه الشيعي الأول الإمام جعفر الصادق، بعيدًا عن الهرطقات والسجالات العقيمة التي قال بها ابن تيمية والمودودي وابن عبد الوهاب والخميني والسستاني والقائمة الطويلة من تجار الدين وصناع الطائفية؛ سيصل الإنسان إلى ما وصل إليه المفكر الإسلامي أحمد الكاتب في كتابه "السنة والشيعة: وحدة الدين- وخلاف السياسة والتاريخ"[3].

١- جيلز كوبيل، مصدر سابق، ص:١٤٠.

٢- فريال حسن خليفة، أهمية العقل، القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع، ص:١١٥.

٣- أحمد الكاتب، السنة والشيعة: وحدة الدين وخلاف السياسة والتاريخ، بيروت: الدار العربية للعلوم- ناشرون، ٢٠٠٧.